الزوايا والطرق الصوفية في المغرب
العلاقة مع المخزن والمستعمر

د. قاسم حادك

دكتوراه في تاريخ المغرب المعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم الحادك، الزوايا والطرق الصوفية في المغرب: العلاقة مع المخزن والمستعمر.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٨٢ – ٨٨.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

برزت الزوايا في المغرب منذ نشأتها كقوة مادية ومعنوية تأطيرية تمتعت بتأثير كبير في جميع المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية. كما جمعت بين العبادة والتصوف ونشر العلم وتوفير الأمن والحماية للناس واستنفارهم وتعبئتهم لمواجهة التهديدات والاعتداءات الأجنبية. لكن هذه المؤسسات الصوفية تحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية. وكانت النتيجة النهائية التي آلت إليها هذه السياسات المخزنية تجاه الزوايا هي انتهاؤها بتقديم خدمات وتسهيلات للمستعمر الفرنسي، بعدما كان دورها سابقا خدمة المخزن المغربي ومساندة قراراته ومواقفه وتزكيتها. إذ بمجيء الاستعمار الفرنسي تواطأت جل الزعامات الصوفية مع قوات الاحتلال وعملت بكل وسائلها على تشتيت كتلة المقاومة وتفكيك وحدتها واتسمت مواقفها بالسلبية والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، فرحبت بالمشروع الاستعماري ودعمته وأقنعت أنصارها وأتباعها بايجابياته ومزاياه.

مُقَدِّمَة

شكل موضوع الزوايا والطرق الصوفية مجالاً خصبًا للمؤرخين والباحثين على اختلاف توجهاتهم ومنطلقاتهم الفكرية، إذ لا يخفى على أحد الأدوار الحاسمة التي قامت بها هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية في تشكيل تاريخ المغرب، فقد كان رجالات التصوف دائما في قلب المجتمع والسياسة، فطبعوا تاريخ المغرب وكانوا فاعلين في تأسيس دوله وتوجيه سياسته وثقافته وتشكيل هويته. وبمجيء الاستعمار الفرنسي اتسم الموقف العام لجل الطرق والزوايا بالسلبية والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، فتواطأت جل الزعامات الصوفية مع قوات الاحتلال وعملت بكل وسائلها على تشتيت كتلة المقاومة وتفكيك وحدتها. ويبقى فهم هذا الموقف التي اتخذته الزوايا والطرق الصوفية بالمغرب من الاحتلال الفرنسي، والإحاطة بالأسباب التي جعلتها ترتمي في أحضان المشروع الاستعماري الفرنسي وتدعمه بكل إمكانياتها ووسائلها، رهين بتتبع التطور الذي عرفته هذه المؤسسات الدينية من نشأتها إلى المرحلة الاستعمارية، وتحليل طبيعة العلاقة المنسوجة تاريخيًا بينها وبين المخزن.

أولاً: ظهور الزوايا في المغرب وتطورها

لم تظهر الزاوية في تاريخ المغرب كمركز ديني وعلمي إلا بعد الرباط. والرباط لغة من رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح الصوفية على شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجومات العدو عنها. والثاني هو

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

المكان الذي يلتقي فيه صالحو المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين.[١] وقد عرف المغرب الرباط منذ القرن الأول الهجري وذلك ارتباطًا مع الفتح الإسلامي، وتميز بغلبة الجانب الحربي على الجانب التربوي، في حين تُعَدّ الزاوية مكانًا خاصًا بالتعبد وتلاوة القرآن وذكر الله وتطهير النفس وتهذيبها، وإن كانت شكلاً من الرباط لكنها تتسم بطغيان الجانب التربوي، فالرباط إذن مرحلة متقدمة وتمهيد لظهور الزاوية في المغرب.

بعد القرن الحادي عشر ظهرت الزاوية في المغرب وعرفت في بادئ الأمر بـ "دار الكرامة" كتلك التي بناها يعقوب المنصور الموحدي في مدينة مراكش، ثم أطلق اسم "دار الضيافة" على ما بناه المرينيون من الزوايا. وقد كان السلطان أبو يوسف يعقوب المريني يهدف إلى جعلها دورًا لاستقبال الغرباء والوافدين من الخارج من كبار رجالات الدولة وأعيانها. كما خصص السلطان أبو عنان للمعوزين الوافدين على الزوايا طعامًا يوميًا، فهيأ بذلك الجو عن غير قصد لجعل هذه المؤسسات تستقبل المريدين فيما بعد.[٢] وهو الذي أسس الزاوية العظمى في مدينة فاس والتي ذكرها ابن بطوطة في رحلته.[٣]

مع حلول القرنيين الرابع عشر والخامس عشر انتشرت الزوايا في المغرب مما دفع المرينيين إلى تطويرها مساهمة منهم في إغناء الحركة العلمية إلى جانب جامعة القرويين بفاس. وقد ظهر في هذا العصر العديد من رجالات التصوف. كما انتعشت مؤسسة الزاوية بشكل كبير منذ القرن السادس عشر أي بعد هزيمة المسلمين في الأندلس وامتداد أطماع الإيبيريين إلى الثغور المغربية. وأمام عجز المخزن الوطاسي عن مواجهة الأطماع بالجدية والصرامة اللازمتين قامت هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية بالدعوة إلى الجهاد والتعبئة العامة، إذ وجد نداء الصوفية استجابة واسعة لدى فئات كثيرة هبت للدفاع عن البلاد وحمل السلاح. وقد ساعدهم على القيام بهذا الدور ضعف السلطة المركزية ومساندة الفئات الشعبية التي كانت ترى في شيوخ الزوايا قوة روحية لها احترامها وتقديرها.[٤] وقد عمل هؤلاء الشيوخ على ترسيخ هذا الاعتقاد من خلال سعيهم إلى سن طرق لزواياهم، وبالفعل أثبتت هذه التجربة نجاحها وتمكن شيوخ الزوايا من تقوية نفوذهم داخل الأوساط الشعبية الشيء الذي أهلهم للوصول إلى القيادة السياسية، بل إن العديد من الطرق والزوايا كانت نواة لقيام دول في المغرب كالدولة السعدية مثلاً، حيث يرجع الفضل في مبايعة القائم بأمر الله أول السلاطين السعديين إلى شيوخ الزوايا. كما أن بعض الزوايا كانت قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى السلطة كالزاويتين الدلائية والسملالية.

وقد ساهم هذا التطور الذي عرفته الزوايا، والمتمثل في انتقالها إلى ممارسة العمل السياسي، بشكل فعال في انتشارها، فأصبحت الحاجة إلى الانخراط في زاوية معينة ضرورة اجتماعية وخيارًا ملحًا.[٥] وبهذا صار رجالات التصوف أشخاصًا يتجلى فيهم نظام العقيدة من غير تفريط في التقاليد المحلية. وترسخ بالتالي ارتباط وثيق بين المخزن وزعماء الزوايا والطرق الصوفية.

ثانيًا: تأثر الزوايا بفعل مسلسل المخزنة (الزاوية الوزانية والناصرية نموذجًا)

اختلفت المقاربات وتعددت التصورات النظرية التي تناولت العلاقة بين الزوايا والمخزن، وحددت القواعد المنسوجة تاريخيًا بين الطرفين، وانطلاقًا من الكم المهم من الأبحاث والدراسات المنوغرافية والتركيبية التي تم إنجازها حول أهم الزوايا في المغرب وعلاقتها بالمؤسسة المخزنية من قبل باحثين مغاربة وأجانب، يمكننا التمييز بين تصورين رئيسين:

- التصور الأول يعتبر الزوايا طرفًا فاعلاً في الصراع الاجتماعي والسياسي الذي يعرفه المجتمع، ويؤكد حضور البعد السياسي ضمن البنية المرجعية للزوايا سواء اتخذ هذا الحضور شكل مجموعات ضغط على المخزن كما تزعم (Morsy Magali)، أو مشروع حركة سياسية تريد الوصول إلى السلطة كما يدعي (Michaux Bellaire) "داخل كل زاوية توجد نواة للسلطة".[٦]
- أما التصور الثاني فيمثله عبد الله العروي[٧] الذي لا ينفي من خلاله حضور السياسة في بنية الزاوية المرجعية، لكنه يجعل حضورها في المجتمع المغربي رهينًا بإرادة السلطان السياسية، ويعتبرها عاملاً حاسمًا في إضفاء المشروعية على حضور الزوايا، بمعنى أن الزاوية لم يكن ممكنا لها أن تمارس مهامها أو أن تفرض ذاتها في المجتمع لولا إرادة السلطان، إنه -أي السلطان حسب عبد الله العروي- هو الذي يمنحها بل يفوضها جزءًا من مهامه وسلطاته.[٨]

إذا كان التصور الأول يجعل الزوايا طرفًا في الصراع السياسي والاجتماعي الدائر في المجتمع، فإن التصور الثاني يجعل منها أداة فقط في هذا الصراع يستخدمها المخزن لممارسة سلطته في كثير من المناطق.[٩] فأين تكمن محدودية هذين التصورين؟

إن ما يتم إغفاله بهذا الصدد هو أن التعميم في حقل الزوايا يعد مجازفة نظرية ومنهجية خطيرة جدًا تؤثر على نتائج البحث والتحليل،[١٠] إذ لا يمكننا القول إن جميع الزوايا عرفت نفس المسار والتطور ونسجت نفس العلاقات، كما أن اعتبار حضور الزاوية نتاجًا لإدارة السلطان وتفويضه هو اختزال لها في بعدها الديني سواء بشكل واع أو لا واع، لأن هذا الاختزال يجعل من السلطان أميرًا للمؤمنين[١١] أي مرجعية دينية وحيدة، وما يتم إغفاله هنا هو الأبعاد الأخرى للسلطان بوصفه شخصًا سياسيًا وقائدًا مخزنيًا ومالكًا اقتصاديًا، وهذه الأبعاد تحدد سياسته في الحقل الديني، كما أن الزوايا تحمل هي الأخرى في بنيتها أبعادًا سياسية واقتصادية، وهذه الأبعاد هي التي تحدد علاقتها مع المخزن ومع باقي مكونات المجتمع.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فهل تمثل الزاوية سياسة مضادة لسلطة المخزن ورافضة أن يشاركها مجال نفوذها السياسي حسب ما تؤكده أطروحة الصراع بين الزاوية والدولة كما تدافع عنها الأطروحة الكولونيالية ؟ أم إن الزوايا ليست سوى مجرد أداة سياسية من صنع المخزن، أو على أقل تقدير هي موجهة من قبله لخدمة سياسته على مستوى القبيلة كما تدافع عن ذلك الأطروحة الوطنية في شخص عبد الله العروي؟[١٢] أم إن واقع العلاقة بين الزوايا والمخزن يظل أعقد مما يصوره هؤلاء، وأبعد من أن يختزل في إطار إحدى المقولتين: صراع أو إخضاع ؟[١٣]

إن وضع الزاوية في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية يظل وضعًا معقدًا يتغير باستمرار وتحكمه مجموعة من التناقضات ولا يمكن استيعابه وتأطيره إلا وفق تصور جدلي يفترض الصراع كما يفترض الخضوع والتعاون.[١٤] لا يمكننا الحديث هنا عن علاقة المخزن بكل الزوايا والطرق الصوفية، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة منفصلة ومفصلة، وإنما سنحاول إبراز نوعية وبعض مظاهر العلاقة التي كانت تربط المخزن بهذه المؤسسات الدينية والتي ظل تأثيرها مستمرًا ومتواصلاً حتى حدود الفترة الكولونيالية.

عمل المخزن طوال تاريخه على إخضاع الزوايا[١٥] وإدماجها ضمن سياسته قصد توظيفها كأدوات لترتيب سيطرته وتبريره. وقد خضعت هذه العملية لسيرورة طويلة الأمد يمكن القول معها إن المخزن في علاقته بهذه المؤسسات حاول جاهدا إضعافها بأشكال مختلفة تارة باللين وتارة أخرى بالعنف، وبلور من أجل ذلك عدة استراتيجيات أهمها المواجهة، الاحتواء، التدجين ووضع الزاوية خارج الشرع،[١٦] وهي استراتيجيات هدفت في مجملها الدفع التدريجي للزوايا نحو المجال الديني والاقتصادي وتقليص نفوذها السياسي.[١٧]

أدرك المولى إسماعيل قوة مؤسسة الزاوية وتأثيرها الروحي على المناطق التي توجد فيها، فشيوخها "يؤمنون الاستمرارية والهيكل القوي الذي يحتاج إليهما بإلحاح النظام السياسي للقبائل"،[١٨] كما أنهم "حجر الزاوية للنظام القانوني -نظام التحكيم- للقبائل"،[١٩] فانتهج أسلوبًا متطورًا حاول من خلاله خلق نوع من التوازن في سياسته بإقامة علاقة وفاق بينه وبين معظم الزوايا، فالسلطة المركزية محتاجة إليهم لضمان استمراريتها، ولم يحاول اقتلاع هذه المؤسسة من جذورها من خلال ضرب عوامل ارتكازها،[٢٠] بل حاول فقط انتهاج سياسة غايتها أن تؤدي على المدى البعيد إلى ضرب الشروط المادية لتواجد الزاوية دون المساس بشرعية هذا التواجد، أو بعبارة أخرى تؤدي إلى تدجين الزاوية،[٢١] لأن بقاءها ممتلكة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم المخزن باعتبارها إحدى الضروريات السياسية لتوازنه العام.

وقد حاول المولى إسماعيل الاستفادة من التأثير الروحي للزوايا لخلق نوع من التوازن السياسي، فعمل على استقطاب الزوايا ذات النفوذ الواسع منها،[٢٢] خاصةً تلك التي لها نفوذ واسع في مناطق حساسة محاولاً إفراغها من قوتها وحركيتها. ولعل أبرز تجليات هذه السياسة هو قراره القاضي بأن تجعل كل الزوايا مقرها بفاس،[٢٣] إنه بكل تأكيد حرمان لها من عمقها الاستراتيجي والعسكري وتجريدها من مقومات تواجدها المادي (الجبل) بسجنها داخل الحاضرة فاس. ورغم ذلك فقد تميزت سياسة المولى إسماعيل بالمرونة، إذ لم يلجأ إلى السلاح لقمع الزوايا والطرق الدينية إلا مضطرًا، بينما عمل على توظيف هذه الزوايا بعد تدجينها لبسط نفوذه على القبائل. فلمواجهة خطر زاوية آل أمهاوش وأحنصالة المتحصنين بجبال الأطلس عمل المولى إسماعيل شخصيا على ترأس الحركات الموجهة لقمعهم، كما قام ببناء عدة قصبات حول مستقراتهم لاحتواء خطرهم،[٢٤] وبذلك استطاع السلطان الحد من عبث قبائل صنهاجة دون أن يستطيع القضاء على آل أمهاوش وأحنصالة.[٢٥]

وإذا كان المولى إسماعيل قد بدأ استراتيجيته الهادفة إلى ضرب المقومات المادية للزوايا بتدجينها بعدما فطن إلى أن عملية استقطاب زاوية ما يعني احتواء عدة قبائل سيتطلب إخضاعها جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً، وهي السياسة التي "أعطت أكلها بحيث لم تقم الزوايا والطرق الصوفية طيلة فترة الأزمة التي تلت وفاة المولى إسماعيل ودامت ثلاثين سنة بأية أدوار مهمة وكان حضورها محدودًا"،[٢٦] فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي تولى الحكم سنة ١٧٥٧م تبنى بدوره نفس سياسة المواجهة في محاولة منه لاحتواء الزوايا والحد من خطورتها[٢٧] وجعل أنشطتها تقتصر على المجالات الدينية دون غيرها، خاصةً تلك التي توجد في مناطق نفوذه وتحت مراقبته، والعمل مقابل ذلك على حصر نشاط زعماء الزوايا البعيدين عن سلطته.[٢٨] وأبرز مثال على ذلك قيامه سنة ١٧٥٨م مباشرة بعد توليه الحكم بقتل أبي عبد الله محمد العربي الخمسي الذي كان يتمتع بشهرة دينية وصوفية كبيرة لدى قبائل غمارة والأخماس في منطقة شفشاون، وأمره أيضًا بقتل كل من الزعيم الصوفي محمود الشنقيطي الذي حاول إثارة البلبلة في صفوف القبائل الأمازيغية، والحاج العموري الذي زعم بأنه "صاحب الوقت".[٢٩] كما قام سنة (١٧٨٤ - ١٧٨٥م) بتخريب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، حيث "...أمر بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي وعشيرته إلى مراكش".[٣٠]

أما السلطان المولى سليمان فقد عمل على إكمال هذه السياسة وذلك بالتركيز على القضاء على أسس ومقومات شرعية الزوايا.[٣١] فقد تولى المولى سليمان الحكم سنة ١٧٩٢م، وكان معروفًا بورعه وتقواه وتعاطفه مع المذهب الوهابي،[٣٢] وقد استند على هذا الاتجاه السلفي لبلورة استراتيجية وضع من خلالها الزاوية خارج الشرع، فحاول في بداية حكمه القيام بنوع من التدجين للزاوية ليس على الطريقة الإسماعيلية،[٣٣] ولكن على طريقته الخاصة، حيث أكد على ضرورة ارتباط الزاوية بالشرع كشرط

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

للسماح بتواجدها، لكن وأمام فشل هذه السياسة لجأ المولى سليمان لأول مرة إلى بلورة استراتيجية تهدف إلى اقتلاع الزاوية من جذورها من خلال وضعها خارج الشرع،[٣٤] وذلك باتخاذ عدة إجراءات ترمي إلى إلغاء الحصانة التي كان يتمتع بها شيوخ الزوايا والطرق الدينية وحرمانهم من الامتيازات التي كانت تمنحهم السلطة المركزية حتى صارت حقوقًا شبه مكتسبة. كما حاول فك الارتباط بين الزاوية والقبيلة من خلال تنديده ورفضه لممارساتها باعتبارها بدعًا مخالفة للسنة، فمنع إقامة المواسم[٣٥] التي لم تكن لها دلالة اقتصادية فقط كمصدر هام من مصادر الدخل، بل لها دلالات سوسيولوجية ودينية أيضًا تتمثل في خلق شعور جماعي بالتماسك لدى أفراد الزاوية،[٣٦] والعمل على تجديد الروابط والصلات بين شيوخ الزوايا وأتباعهم ومريديهم بشكل يضمن استمرارية الزوايا والطرق الدينية.

وتعتبر الزاوية الوزانية والناصرية نموذجًا للزوايا التي تحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية، فقد عمد السلاطين العلويون إلى احتوائها وتدجينها مستعملين في ذلك العديد من الآليات، فمنحوا شيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام وأعفوهم من الضرائب وأنعموا عليهم بالإقطاعات والهبات والهدايا، فتحولوا من رجالات زهد وتصوف ودين وعلم إلى مستثمرين في الميدانين الفلاحي والتجاري، يكدون في تسيير إقطاعاتهم ويتصارعون من أجل المحافظة عليها. تمكنت الزاوية الوزانية بفضل تواجدها في موقع استراتيجي عند ملتقى الجبل والسهل من القيام بدور الحاجز الذي يفصل القبائل الجبلية وقبائل السهول، الشيء الذي دفع المخزن إلى محاولة التقرب منها والاستفادة من نفوذها الكبير ومن رأسمالها الرمزي والروحي وعمق ارتباطها وتلاحمها بكتلتها القبلية، وتسخيرها لخدمة مصالحه لضبط واحتواء الأوساط القبلية الجبلية[٣٧] التي يتطلب إخضاعها وتعزيز سلطة المخزن فيها اللجوء المستمر للقوة العسكرية.

وإذا كان شيوخ الزاوية الوزانية قد شكلوا أحد دواليب السلطة المخزنية[٣٨] التي لا يمكن الاستغناء عنها لتثبيت سلطتها في جهات نائية لا يمكن للمخزن أن يكون حاضرًا فيها بقوة، فإنهم مقابل ذلك استفادوا كثيرًا من هذا التحالف الضمني، فتمكنوا بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي كسبوها من نشر طريقتهم بسرعة داخل المغرب وخارجه وراكموا ثروات مادية كبيرة[٣٩] مما جعلهم يشكلون خاصةً المجتمع.[٤٠] أما الزاوية الناصرية فقد استغل شيوخها بعد المؤسسة المخزنية وعجزها عن القيام بوظائفها للتدخل في حل النزاعات بين قبائل درعة،[٤١] فأصبح شيخ الزاوية الناصرية يتمتع بدوره بنفوذ قوي وعدد هائل من الأتباع في كل درعة والمناطق المجاورة مستغلاً عجز المخزن،[٤٢] لكي يلعب دور الوساطة في الصراعات بين القبائل بحكم تواجده في مناطق نائية لم يستطع سكانها التوجه إلى السلطان الضعيف والبعيد، فتعودوا اللجوء إلى الزعيم الديني لتامكروت. الشيء الذي دفع المخزن إلى منح شيوخ الزاوية الناصرية العديد من الامتيازات جزاء على دعمهم وخدمتهم له واعترافًا بالدور الهام الذي يقومون به في تدعيم آليات ضبط قبائل درعة وإخماد صراعاتها، فأصبحت الزاوية الناصرية أهم زاوية في الجنوب قبل أن تتوسع فروعها في جل مناطق المغرب لتصل إلى ما يناهز ثلاثمائة فرع مما زاد من ممتلكاتها وضاعف من مداخيلها،[٤٣] وبذلك صارت من أهم الزوايا ذات النفوذ الواسع في المغرب.

لكن هذه الوضعية المادية المتميزة التي عرفتها الزاوية الناصرية[٤٤] أدت إلى احتدام الصراع والتنافس حول زعامة الزاوية، وهي الخاصية التي ميزت زاوية تامكروت على امتداد فترة طويلة. وقد ساهم تجدد النزاعات حول مشيخة الزاوية بشكل دوري غداة وفاة كل شيخ،[٤٥] وتدخل المخزن باستمرار في الشؤون الداخلية للزاوية الناصرية بسبب عجزها عن حل مشاكلها الخاصة والتماسها الوساطة المخزنية لحل تلك النزاعات -وهي التي كانت إحدى وظائفها الأساسية التوسط بين القبائل لحل نزاعاتها الداخلية- بالإضافة إلى حصول الشيخ الجديد على تعيين من لدن السلطان، في تكريس التبعية التدريجية للمخزن وبالتالي فقدان الزاوية لاستقلالها. شكلت هذه السياسة التي نهجتها المؤسسة المخزنية منعطفًا جديدًا في تاريخ العلاقة بين الزاوية الناصرية والمخزن الذي استغل مشكل المشيخة فقام بتوجيه ضربة للزاوية عبر إشغالها في نزاعات داخلية وتحويلها إلى مجرد أداة طيعة من أدوات حكمه.[٤٦]

ثالثا: ركون جل الزوايا والطرق الصوفية إلى مسالمة ومهادنة المستعمر

شكلت نهاية القرن التاسع عشر المرحلة الأخيرة من مسلسل الإخضاع الكامل لجل الزوايا والطرق الدينية، وخصوصًا منها ذات النفوذ الواسع مثل الوزانية والناصرية والشرقاوية... وذلك بتبني المخزن لسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى احتواء هذه الزوايا، عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي وإدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة (هبات، عقارات، إعفاءات ضريبية...)، فتحول زعماؤها من رجالات علم وتصوف إلى إقطاعيين همهم الأساسي هو الحفاظ على امتيازاتهم وجمع الأموال ومراكمة الثروات. لكن وبعد ضعف المخزن وعجزه كان من الطبيعي أن يبحث بعض شيوخ هذه الزوايا ورجالاتها عن سلطة داعمة أخرى تحافظ على مكتسباتهم وتدعم طموحاتهم، فكان انتقالهم من الوصاية المخزنية إلى وصاية وحماية سلطات الحماية الفرنسية. لقد أدرك هؤلاء مبكرًا ضرورة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

البحث عن موطئ قدم لهم في العهد الجديد ضمانًا لاستمرارية امتيازاتهم وحفاظًا عليها فرحبوا بالمشروع الاستعماري ودعموه وأقنعوا أنصارهم وأتباعهم بايجابياته ومزاياه.[٤٧]

إن ما تعرضت له الزوايا من تدخلات من طرف المخزن وفقدانها لقاعدتها وأساسها الذي نشأت من أجله، وما تراكم لديها من معرفة بالأوضاع السياسية، جعلها -وبعد أن ارتمت في أحضان المخزن- تختار الطرف الأقوى في المعادلة، فكانت إلى جانب الفرنسيين، وشاركت بنفوذها في تكريس الأوضاع الجديدة وإقناع أتباعها بضرورة الخضوع للمخزن الفرنسي، والعمل بالتالي على تفكيك وحدة المقاومة. بل إن بعض الزوايا كانت سباقة إلى طلب الحماية القنصلية قبل توقيع عقد الحماية بكثير، ونخص بالذكر شريف وزان الذي أعلن عن حمايته الفرنسية منذ ١٨٨٤م،[٤٨] فقد كان نفوذ الشيخ الوزاني يشمل جل المناطق الشمالية للمغرب ويمتد حتى منطقة توات،[٤٩] لكنه فقد مكانته داخل البلاط المخزني بعد حرب (١٨٥٩- ١٨٦٠م) ضد إسبانيا، فتراجع نفوذ زاويته وتقلصت مداخيلها. وبما أنه لا يستطيع أن يستمر من دون دعم قوة سياسية، فقد حاول أن يجد في المناطق الجزائرية ما فقده في المغرب، ونجح في ذلك عندما التقت مصالحه مع مصالح الفرنسيين، فتحول من منفذ لسياسات المخزن إلى أداة لخدمة السياسة الفرنسية.

من هنا تبدو أهمية الوصاية السياسية كضرورة حيوية بالنسبة للزوايا، لذلك بادرت هذه الأخيرة بعد فقدان المخزن لهيبته للبحث عن تعويض لسلطته،[٥٠] ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو.[٥١] فمع انطلاق المخططات الاستعمارية الفرنسية في المغرب كانت الزوايا والطرق الصوفية تمثل أهم تنظيم سياسي وديني يتمتع بنفوذ كبير وقاعدة شعبية عريضة، وبالتالي كانت هي المؤسسات الوحيدة إلى جانب المؤسسة المخزنية والقوى القبلية القادرة على تأطير القوة البشرية الهامة التي كانت تتوفر عليها وتنظيمها لإعلان الجهاد والتصدي للقوات الاستعمارية. لكن وبعد نجاح الفرنسيين في استمالة المؤسسة المخزنية إلى جانبهم، لم يبق في المغرب من يرعى المقاومة وينظمها سوى القبائل المؤطرة من طرف شيوخ الزوايا والطرق الصوفية الذين كانوا لوحدهم في المجتمع القبلي إلى جانب عدد قليل من الزعماء القبليين، لأنهم كانوا يتمتعون بمكانة خاصة وقدرة على التأطير والإقناع والتعبئة مما جعلهم مؤهلين للتدخل في وقت التهديد الخارجي.

وقد وضع الغزو العسكري الفرنسي النخب المغربية وخاصةً زعماء الزوايا والطرق الصوفية أمام إشكالية معقدة ساهمت في ظهور جدل كبير بينهم أدى إلى بروز انقسام واضح بين هذه الزعامات الروحية والقبلية، بين من رأى أن ظروف وشروط الجهاد غير متوفرة معتبرًا دعاة الجهاد مجرد مثيرين للفتنة وخارجين عن الشرع والحكمة مادام أن الجهاد لا بد أن يكون تحت راية السلطان وبأمره، وهذا الأمر ينطبق على الزاوية الوزانية والناصرية والشرقاوية والزاوية الدرقاوية الأم، وبين الزعامات الصوفية الدرقاوية التي رأت في الغزو الاستعماري غزوًا نصرانيًا مسيحيًا وانتهاكا لأرض الإسلام من طرف "الكفار" الذين لا بد من إعلان الجهاد للتصدي لهم والوقوف في وجههم، فنظمت الجهاد وأعلنت التعبئة وأطرت المجاهدين للوقوف في وجه الغزو الفرنسي بإمكانات محدودة لم تكن كافية لعرقلة تقدمه، لأنها كانت مضطرة لتبني المقاومة وإعلان الجهاد في غياب مؤسسات مركزية فاعتمدت على وسائلها الخاصة وإمكانياتها الذاتية.

ويبدو من مواقف هذه الزعامات الصوفية أنها كانت مدفوعة بدافع الحرص على صيانة مصالحها المادية والروحية، والطمع في الامتيازات ونيل المكانة والحظوة تدعيما وتوسيعا لنفوذها المادي والمعنوي. كما أن التبريرات التي قدمتها هذه الزعامات لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تخفي الدوافع الحقيقية لمواقف هذه الزوايا والنابعة أصلا من رغبتها في حماية مصالحها من ضغوطات وإجراءات الوجود الفرنسي، خاصة وأن هذه الزوايا كانت عبارة عن مؤسسات "إقطاعية" تتوفر على أراضي وعقارات ومداخيل مالية مهمة،[٥٢] فهي زوايا حضرية جل مريديها من بورجوازية المدن الكبرى والمتوسطة التي كانت مصالحها مهددة مباشرة بإجراءات السلطات الفرنسية التي سعت إلى تجريدهم أو على الأقل مزاحمتهم في أدوارهم المختلفة التي كانوا يقومون بها ويؤدونها، مما جعلهم يذعنون تباعا وخصوصا الذين كانت لهم مصالح أكبر.[٥٣]

وأيًا كانت الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف، فإن هذه الزعامات الدينية قد تحولت إلى أدوات سهلت عمليات التغلغل الاستعماري الفرنسي في المغرب وخففت من العداء الذي ووجهت به القوات الفرنسية من طرف القبائل المغربية، مما كان له كبير الأثر على وحدة وتماسك المقاومة، التي وإن كانت قد حققت بعض الانتصارات الجزئية فإنها لم تتمكن من الاستمرارية. لقد رأى شيوخ هذه الزوايا مثل شريف وزان وشيخ الناصريين والشرقاويين في الهجوم الاستعماري قدرًا محتومًا لا مفر منه، لذلك راحوا يعملون على إقناع مختلف القبائل بضرورة وحتمية الخضوع للمخزن الفرنسي، وبالتالي تفكيك وحدة المقاومة، وبمواقفهم المساندة للوجود الفرنسي بالمغرب يكون هؤلاء الشيوخ قد خدموا مصالح المحتل وقدموا له دعمًا معنويًا هامًا.[٥٤]

خاتمة

وخلاصة القول؛ أن المخزن عمل جاهدًا على إضعاف الزوايا والطرق الصوفية بأشكال مختلفة تارة باللين وتارة أخرى بالعنف، حيث تبنى السلاطين العلويون طيلة قرنين من الزمن سلسلة من الإجراءات والتدابير بهدف احتواء هذه المؤسسات عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي والدفع التدريجي بها نحو المجال الديني والاقتصادي، وبالتالي إدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة. وقد كانت لهذه السياسات المخزنية انعكاسات مباشرة على هذه الزوايا تمثلت في انتهائها بتقديم خدمات وتسهيلات للمحتل الفرنسي بعدما كان دورها سابقًا خدمة المخزن المغربي ومساندة قراراته ومواقفه وتزكيتها.

وقد استفادت السلطات العسكرية الفرنسية كثيرًا من مسلسل الاحتواء والإخضاع الذي تبناه المخزن المغربي تجاه الزوايا والطرق الصوفية، وهو المسلسل الذي نجح في جعل نشاطها يقتصر على الميادين الدينية دون المجالات السياسية. فبعد فقدان المخزن لهيبته بادرت هذه الأخيرة للبحث عن تعويض لسلطته، فارتمت في أحضان المشروع الاستعماري الفرنسي ودعمته بكل إمكانياتها ووسائلها، ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو.

الهَوامِشُ:

(١) حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الطبعة ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٠٨٨، ص٢١.

(٢) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص١٠٣.

(٣) حجي محمد، م. س، ص٢٤.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الصغير عبد المجيد، "**من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي في المغرب**"، مجلة البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٧٧،١٩٩٩، ص٢٧٤.

(6) Michaux Bellaire, *Les confréries religieuses Au Maroc, Archives Marocaines*, Vol V XXVII, Librairie Ancienne Honoré, Paris 1927, p.25.- Drouin Jeannine, *un cycle hagiographique orale dans le moyen Atlas*, imprimerie nationale, Paris, 1975, p.19.

(7) Laroui A, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*: 1830- 1912, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 1993, p.143.

(8) Ibidem.

(٩) الزاهي نور الدين، **طبيعة الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي**، رسالة (د.د.ع)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، السنة الجامعية١٩٩١-١٩٩٢، ص١٥٩.

(١٠) المرجع نفسه، ص١٦٠.

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٦٤.

(١٣) حجاج محمد، "**الزوايا: المجتمع والسلطة في المغرب" (مقاربة سوسيو-أنتروبولوجية)**، فكر ونقد، السنة العاشرة، عدد ٩٤، يناير ٢٠٠٨، ص٥٠.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) ظريف محمد، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٢، ص١١٩.

(١٦) المرجع نفسه، ص ١١٩ - ١٢٩.

(١٧) الزاهي نور الدين، **طبيعة الانتقال والتحول**...، م.س، ص١٦٤.

(١٨) أبو إدريس إدريس، "**علاقة الدولة المركزية بالزوايا**"، مجلة أمل، العدد ١٩-٢٠، السنة السابعة، ٢٠٠٠، مطبعة النجاح الجديدة، ص ٩٢.

(١٩) المرجع نفسه.

(٢٠) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٣.

(٢١) المرجع نفسه.

(22) Drouin Jeannine, op.cit, p.20.

(٢٣) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٣.

(٢٤) من أجل احتواء الزوايا المرتبطة بتكتلات قبلية متحصنة عمد المولى إسماعيل إلى إنشاء حزام دفاعي صلب لمراقبة ومحاصرة هذه القبائل الأمازيغية، أنظر:

-Drouin Jeannine, op.cit, p.21. -Drague G, op.cit, p.150.

(25) Marty Paul, *Les Zaouias Marocaines et Le Makhzen*, Paris, Genthner, 1929, p.586.

(26) Drague G, op.cit, p.84.

(٢٧) ظريف محمد، م.س، ص١٢٥.

(28)Drague George, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, peyronnet, Paris, 1951, p.84.

(29) Ibidem.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣٠) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء ٨، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٦، ص٥٩.

(٣١) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٤.

(32)Drague G, op.cit, p.255.

أجمع كل الذين عرفوا المولى سليمان عن قرب على صفات الزهد والتقشف التي طبعت سلوكه. ولم يفت الملاحظين الأجانب الذين زاروا البلاد أن يشيروا إلى بساطة نمط عيشه ونفوره من مظاهر الترف. فلباسه كان في غاية البساطة، كما أن بلاطه كان بعيدًا كل البعد عن مظاهر الأبهة، وانطلاقًا من ذلك أبدى السلطان المولى سليمان تعاطفًا مع الأفكار الوهابية، فكان بالتالي من الحكام المسلمين القلائل الذين امتنعوا عن مهاجمة المذهب الوهابي، انظر:

المنصور محمد، **المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين (١٧٩٢ - ١٨٢٢)**، ترجمة محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص٢٢٣ - ٢٢٨.

(٣٣) ظريف محمد، م.س، ص١٣٩.

(٣٤) المرجع نفسه.

(٣٥) قام السلطان المولى سليمان بكتابة رسالة تحرم زيارة الأضرحة وإقامة المواسم ألقيت في مختلف مساجد المغرب، وهو ما اعتبره زعماء الزوايا والطرق الدينية بمثابة إعلان حرب ضدهم. فهل كان ارتكاز المولى سليمان على الأفكار والمبادئ الوهابية استمرارًا لمسلسل الإخضاع والاحتواء الذي تبناه السلاطين العلويون ونهجوه طوال تاريخهم للحد من نفوذ الزوايا غير المندمجة بشكل كامل في النسق المخزني، أم كان نابعًا عن اقتناع وتشبع بهذه الإيديولوجية الوهابية؟

(٣٦) ظريف محمد، م.س، ص ١٤٠.

(37)Michaux Béllaire, *L'évolution politique de la Berbère sédentaire*, Archives Marocaines, Vol VX, 1912,p.24.

(٣٨) العمراني محمد، **"الزاوية الوزانية والمخزن العلوي من مرحلة التأسيس إلى أواخر القرن الثامن عشر"**، مجلة المناهل، السنة ٢٩، عدد (٨٠-٨١)، مطبعة دار المناهل، فبراير ٢٠٠٧، ص١٤٥.

(39) Drague Georges, op.cit,p.52.- Odinot Paul, *Le Monde religieux, Revue France Maroc*, 9eme Année, №107, Octobre 1925, p.399.

(٤٠) العمراني محمد، م.س، ص١٤٥.

(41) Bodin Marcel, *La Zaouia de Tamegrout, Archives Marocaines*, Vol III, 1918, p290.

(42) Drague G,op.cit, p.149.

(43) Spilmann Lieutenant, Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc, C.H.E.A.M, p.5.

(44) Drouin Jeannine, op.cit, p.12.

(45) Ibidem.

(٤٦) تم تسجيل أول تدخل للمخزن المركزي في القضايا الداخلية للزاوية الناصرية بعد وفاة محمد بن بوبكر عندما قام السلطان المولى الحسن بوضع حد للصراع الذي اندلع بين شيوخ الزاوية حول زعامة الزاوية بتعيين الشيخ محمد الحنفي زعيما لزاوية تمكروت خلفًا لأبيه، انظر:

- Bodin Marcel, op.cit, p.277.

(٤٧) اعتمدت السياسة التي اتبعتها سلطات الحماية تجاه الزوايا والطرق الصوفية في المغرب بشكل كبير على الرصيد الذي راكمته من تجربتها في الجزائر، فقد جعل صمود بعض الزوايا وتأطير زعاماتها للعديد من الثورات بالجزائر السلطات الاستعمارية تخشى من أن تلقى من الزوايا والطرق في المغرب نفس ما لقيته من نظيرتها في الجزائر، لأن هذه الأخيرة وإن هادن البعض منها الاستعمار الفرنسي وكرس نفوذه الروحي لخدمة المستعمر كالطريقة التيجانية مثلاً، فإن البعض منها كان وراء العديد من الثورات التي عرفتها الجزائر طيلة الخمسين عامًا الأولى من استعمارها كالطريقة القادرية.

(48) Quelques *mots sur les Confréries religieuses Marocaines*, Renseignement coloniaux, №11, Novembre 1904, p.288.

- على غرار فرنسا لم تتردد بريطانيا في الاستفادة من حماية شخصيات مغربية ذات وزن ديني وسياسي من خلال منحها الحماية للشريف المصلوحي زعيم الزاوية المصلوحية.

(49) Michaux Bellaire, *Le Touat et Les Chorfas D'ouazzane*, Guenthner, Paris, 1928, p.147.

(٥٠) يعتبر جورج دراك أن السلطات العسكرية الفرنسية استفادت كثيرًا من مسلسل الاحتواء والإخضاع الذي تبناه السلاطين العلويون طيلة قرنين من الزمن تجاه الزوايا والطرق الدينية، وهو المسلسل الذي نجح في جعل نشاطها يقتصر على الميادين الدينية دون المجالات السياسية.

(51) Odinot Paul, op.cit, p.399.

(٥٢) بنطالب علي، **"الزاوية والحزب العلاقة الجبائية"**، المناهل، الجزء الأول، العدد (٨٠-٨١)، مطبعة دار المناهل، الرباط، ٢٠٠٧، ص ١٨٦.

(٥٣) يرجع جورج دراك المواقف المتباينة للزوايا المغربية من الغزو الاستعماري إلى اختلاف مصالح النخب السياسية والدينية المسيرة لهذه المؤسسات الضخمة حسب مناطق تواجدها، فقد "تبنت الزوايا التي تتواجد في المناطق المنبسطة سياسة إيجابية إزاءنا، في حين قاومتنا الزوايا التي تتواجد في المناطق الجبلية وأعلنت الجهاد ضدنا..."، انظر:

-Drague G, op.cit, p.84.

(٥٤) لم يكن زعيم الزاوية الناصرية على استعداد للتضحية بمصالحه وطموحاته القيادية خصوصًا أمام زعامات جهادية كان يحسب لها الشيخ الناصري ألف حساب، فاختار معسكره منذ البداية مساندا للكلاوي والفرنسيين، حيث بادر الشيخ الناصري أحمد بن أبي بكر في يونيو ١٩١٤ إلى توجيه رسالة إلى المقيم العام الفرنسي الجنرال ليوطي يهنئه فيها بمناسبة احتلال تازة. موقف الزاوية الناصرية الموالي للفرنسيين لا يمكننا فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الزاوية كان أتباعها من السكان الرحل ونصف الرحل والسكان المستقرين الذين يعتمدون على موارد معيشية محدودة، وهي معطيات وظروف اقتصادية واجتماعية تحكمت في مواقفهم إلى حد بعيد.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449